

## الأسلحة

إذا كان العرب قد عملوا على تحسين جيادهم سعياً إلى المنفعة والجمال والتقوى في آن واحد ، فإنهم أيضاً ولنفس تلك الدواعي ، قد تفننوا في صياغة أمضى الأسلحة وأبدعها ، لمقارعة أعدائهم وأعداء الله .

وإن إقليها ، فيه الصيد هو الوسيلة للعيش غالباً ، وفيه تنشأ المشاحنات المسلحة لأوهى الأسباب بين أهله ، مثل هذا الإقليم ، لا عجب أن يغدو القوس فيه والسهم ، والرمح والسيف — وهي قناصة الصيد محرزة النصر — موضع الإجلال والتقدير ، وتكون الدروع الجيدة فيه ، كالجياذ العريقة ، مثار الاحترام والحسد ، والرهبه والمجد . ولذلك أشاد الشعراء بفضل الأسلحة ، في قصائد طويلة النفس ، كما ترنموا بسمو الجياذ .

وسرعان ما تملك «الشعب الشاعر» دافع آخر إلى الاعتزاز بالأسلحة ، فبعد أن كان يستخدم الأسلحة في قضاء حاجات أصبحت يوماً تلو يوم مشروعة ، ازداد حبه الهاوى الخبير الراغب في الترف وجمع الطرف ، ولم يعد يحبها لما تجلبه من نفع فحسب ، بل بات يحبها لذاتها ، ولجمالها الخالص ، ولما تنطوى عليه من سحر ، ولما تحقق له من فرح ونشوة . ثم أفضى به هذا الشغف — فيما يبدو — إلى التسامى بآلات الموت تلك ، وتوسم رموز الحب فيها ؛ فالقوس تحكى انحناءته اللطيفة « حاجبها » ،

والسهام لا تصيب ولا تصمى كما تصيب « سهام العيون النجل » وتصمى ،  
والرمح أسمر مستقيم من « كجسم الحبيبة اللدن يتثنى رقة وقد أنشته  
نفحات الحب » ، والسيف يتلألأ في المعمة وهو يشخب دما فيذكرنى  
« الابتسامة الساحرة التى انفرجت عن شفتين من العقيق وأسفرت عن صفين  
من اللؤلؤ . . . » ولقد فرض على أهل الشرق كلفهم بالمبالغة أن يوغلوا فى  
التشبيهاة إلى أبعد مدى ممكن ، وأن يخلعوا على الأسلحة الجيدة شخصية  
قائمة بذاتها ويثبوتوا أصلها ونسبها ، ويرصعوها بالجواهر إمعانا فى تشبيهاها  
بالحرائر الكريماة المحمد ، اللواتى يزيدهن حسنا وجمالا ، بهاء ما يتقلدنه  
من اللآلىء والأحجار النفيسة . وأطلقوا على السيوف والرماح والدروع  
أسماء ، ونقبوا عن تاريخ صانعها مهما غاب فى ليل الزمن وأبأ كان هو  
إنسأ أو جنأ ، وأحاطوها بالأساطير كما طعموها بدقيق الزخارف . ورقشوا  
النصال ، واتخذوا من الذهب أو الفضة مقابض للسيوف ، وحلوها  
بالياقوت والماس .

وأخيراً فرض الدين على المسلمين أن يتقنوا فن الحرب ؛ فلقد كان  
جوهرها - فى الواقع - ألا يهملوا أى شىء خلىق بأن يهوى لهم الفوز .  
ودعا النبى إلى الاستهانة بالخطر ، والإيمان بالنصر ، وإلى اقتناء الخيل  
الأصيلة والأسلحة الكريمة ، ووعده من يفعل ذلك ثواب الله ورحمته<sup>(١)</sup> .

(١) قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم

تفلحون » الآية ٥٥ . سورة الأنفال .

ولم ينعدم مع ذلك الفلاسفة الجبريون الذين بينوا بمنطقهم المحكم ألا جدوى من استكمال الأسلحة والتثقل بالدروع ، ما دام القدر – لا السلاح – هو الذى يقتل أثناء الحرب ؛ أفلا ينخطف الردى من حُمّ قضاؤه مهما فعل ؟ أو لا يبقى الموت على من ينبغي ألا يصيبه مهما تعرض للخطر ؟<sup>(١)</sup> وكان الرد على أولئك الجبريين أنه لا يوجد حقاً ما يمنع أو يؤخر وقوع المكتوب ، ولكنه يحسن بالمرء أن يحتمل ما استطاع<sup>(٢)</sup> لكى « يسد طريق القلق الذى قد يبعث الخوف والتخاذل » . على أن الحجّة الفاصلة كانت الإقتداء بالنبي الذى اقتنى – رغم إيمانه بالقدر – أسلحة ممتازة كان يتدجج بها فى جميع غزواته .

وقد نقل لنا الرواة أسماء وأوصاف أشهر تلك الأسلحة وأنفسها . فمن السيوف أربعة : ذو الفقار ، وهو ذو قبضة محلاة بالفضة ، والقلزم ( سيف عمرو بن معيذ يكرب ) والرسوب ( سيف رسول الله صلى الله

---

= وقال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم ، وأنتم لا تظلمون » ، الآية ٦٥ سورة الأنفال .

وقال تعالى : « يأها النبي حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم لا يفقهون » الآية ٦٥ من سورة الأنفال .

( ١ ) قال تعالى : « قل : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » الآية ٥١ . سورة التوبة .

( ٢ ) قال تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ١٩٥ – سورة البقرة .

عليه وسلم) والقاضب ، وقوس أطلق عليه اسم « الكتوم » وعلى جمعته اسم « الكافور»<sup>(١)</sup> ، ودرع هي « البتراء»<sup>(٢)</sup> وقدم لنا الرواة صورة محمد في واقعة أحد وعلى رأسه الخوذة ، وعلى صدره درع نصفي ، وفي يده الرمح وعلى كتفه الحجن ، في حين يتدلى غمد سيفه من حزام جلدي ذي ثلاث حلقات من الفضة<sup>(٣)</sup> . . . وإذا أضفنا المنجنيق إلى هذه المجموعة ، تمت لدينا على وجه التقريب قائمة الأسلحة التي استخدمها العرب في الهجوم وفي الدفاع منذ القرن السابع . وها نحن نستعرضها استعراضا سريعا :

لقد روى صاحب « الأغاني » هذه النادرة التي تجمل لنا مكان بعض تلك الأسلحة المختلفة من تقدير العرب وثقتهم :

سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عمرو بن معد يكرب الزبيدي قائلا :

يا أبا ثور ، ألك علم بالسلاح ؟ قال : على الخبير سقطت . . .  
 سل عما بدا لك . قال : أخبرني عن النبل . قال : منايا تخطى وتصيب .  
 قال : فأخبرني عن الرمح . قال : أخوك ، وربما خانك . قال : أخبرني عن الترس . قال : ذاك مجن ، وعليه تدور الدوائر . قال : أخبرني عن

( ١ ) الغزالي : المرجع السابق ذكره ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .

( ٢ ) الماوردي : الأحكام السلطانية .

( ٣ ) على فصل سيفه . نقشت هذه العبارات : « الجين يذل والفصل يعز . لن ينجو

جبان من قدره » ( رواية فارسية ) . انظر « الروضة الصفا » التي ترجمها إلى الفرنسية

الدرع : قال : مشغلة للفارس ، متعبة للراجل . قال : أخبرني عن  
السيف . قال : عنه قارعتك<sup>(١)</sup> .

ونحن نرى مما سبق أن السيف كان خير سلاح . ولقد استأثر السيف  
بثناء المقاتلين ومديح الشعراء . ولكن اللغة ذاتها تشهد — شهادة أبلغ من  
ذلك الثناء وذلك المديح — بما اتخذته السيوف في نظر العرب من أهمية  
منذ عهد بعيد ؛ فهنالك عدد كبير من المترادفات يدل على السيف حسب  
طول نصله أو قصره أو عرضه ، وحسب أثره من طعن أو حسم أو بتر ،  
وحسب مصدره هندياً كان أو مشرفياً ، وحسب صانعه أهو صراع أو  
أحنف ، وحسب المصنوع له كالملك ابن ذى يزن . ومن السيوف أيضاً  
ما يتم بريقه العجيب وقوته الخارقة عن أنه من صنع الجن وهم أشد من  
البشر وأعلم ، مثل السيف « المعصور » و « المذكر » .

ولا تظنوا أن هذه الأعاجيب كانت وقفنا على الشرق وحده . فإن  
سيف الأمير الفرنسي بودان دى بوفيه (Beaudoin de Beauvais) قد صيغ  
فوق جبل سيناء ؛ كما تنسب إلى صانع خيالي يدعى « جالان » (Galent)

---

(٤) الأغاني ج ١٤ ص ١٣٢ . وقد تبدو هذه الإجابات غاية في البداهة ، ولكن  
ينبغي تأويلها بمعنى أن قيمة الأسلحة مستمدة من قيمة المقاتل . فلقد أتبع لمعدى كرب أن  
يبين رأيه في صورة أوضح ، عند ما طلب إليه عمر بن الخطاب أن يبعث إليه بسيفه المعروف  
بالصمصامة فبعث به إليه ، فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه ، فكتب إليه في  
في ذلك ، فرد عليه : إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ، ولم أبعث بالساعد الذي يضرب  
به . العقد الفريد ج ١ ص ٢٠٩ . (تحقيق) .

تلك السيوف التي اشتهرت في أدب القرون الوسطى - « دورندال » و « فلوربرج » و « فرح » و « عجيب » وقد زعموا أنه أنفق في شحذها أربعاً وعشرين سنة . وأما سيف البطل الوثني « كورنوماران » فقد صاغه « متوشالح » ذاته ، كما صاغ سيوف العملاق « لوكيفير » الثلاثة ، وتذكر قصيدة «بيت المقدس» حساماً صنعه الشيطان<sup>(١)</sup> ففعل ذلك الشيطان بعينه هو الذي يدين له العرب بالمعصور والمذكر !

ولقد كان السيف في الغرب كما كان في الشرق ، وكأنه شخص يخاطبه القوم ويتحرون نسبه ويروون سيرته وأيامه . وكان للسيف اسمه وشعاره : ف « الفرح » سيف شرملان ، و « دورندال » سيف رولان ، و « نفيس » سيف الأمير ، و « الماس » سيف توربان ، و « ذو الفقار » سيف النبي ، و « الصمصامة » سيف عمرو بن معدى كرب ، و « ولول » سيف عتاب بن أسعد ، والمقدم و « الركوبى » و « اليماني » هي السيوف الثلاثة التي وجدها على بن أبى طالب في معبد أوثان طى<sup>(٢)</sup> .

(١) في البيت رقم ٨٣٥٥ ، راجع جوتييه ص ٧٠٨ و ٧٠٩ .

(٢) ذو الفقار بالفتح سيف العاص بن منبه قتل يوم بدر كافراً فصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم صار إلى علي .

(٣) فقرأ في الرسالة التي نشرها « كاتمير » عن تاريخ الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، الذي خلف أباه سنة ١٠٣٦ ، أن قادة الأتراك الذين ثاروا على المستنصر قد حرصوا - بعد أن نهبوا قصر الخليفة - على أن يتقاسموا نفيس الأسلاب ، وكان بينها « ذو الفقار » وسيف عمرو بن العاص ، وسيف عبد الله بن وهب وسيف المعز . . . إلخ . وذلك يدلنا على مبلغ اعتزاز المسلمين بالسيوف الشهيرة حتى القرن الثاني عشر .

ولن نطلب في هذا الموضوع ، وإنما حسبنا أن نقول : إن العرب قد أضفوا على سيوفهم معاني الشرف منذ الجاهلية ، فلما جاء النبي أوجز التعبير عن مشاعرهم باهتمامه بالسيف ، وأضاف حكمة أو وصية دينية ، تنطق بحرصه على حفظ النصال الجيدة بين العرب وحث المسلمين على القتال والموت بالسيف وبجوار السيف ، إذ قال : « واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف »<sup>(١)</sup> ولكي تلتقي السيوف ظلا وإرقا ، ينبغي أن تنتضي وأن تكثر ، وأن تتشابك وتتصادم تحت شمس الوغى . . .

على أن سلاحا آخر كان يضارع السيف نبلا وسموا ، ألا وهو الرمح . يقول ديمای : « كان الرمح في رأى بعض الكتاب أنبل أسلحة الفرسان ، فكان يفضل السيف . ومهما يكن من أمر ، فقد كان حمل الرمح حقاً مقصوراً على الأحرار . »<sup>(٢)</sup> وأما في بلاد العرب فقد اقترن الرمح بالسيف ، وأشاد الشعراء بفضلهما على السواء ، تشهد بذلك الأبيات التالية :  
يقول عمرو بن كلثوم :

نطاعن ما تراضى الناس عنا ونضرب بالسيوف إذا غشنا  
بسمر من قنا الخطى لدن ذوابل أو ببيض يختلينا

(١) صحيح البخارى ج ٧ ص ٢٧ .

(٢) ج . ديمای : المرجع السابق ذكره ، ص ٣٩ .

وقال عنتره :

فقطعتنه بالرمح ثم علوته بمهند صافي الحديدة مخزم<sup>(١)</sup>

وقال أيضاً :

ومدجج كره الكماة نزاله لا ممعن هرباً ولا مستسلم  
جادت له كفى بعاجل طعنة بمثقف صدق<sup>(٢)</sup> الكعوب مقوم  
فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا محرم

وقد يعمل القارئ إذا التزمنا هنا دراسة أنواع الرماح المختلفة (الردينية والسمهرية واليزنية والخطية إلخ . . ) ، وحسبنا أن نلتقط بعض أوجه الشبه بين الرمح العربي والرمح القزنسي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ؛ فقد كانت هامة الرمح العربي بوجه عام سمراء أو خضراء أو زرقاء ، بينما دأب أهل القرون الوسطى في أوروبا على « طلاء خشب الرمح خصوصاً باللونين الأخضر والأزرق »<sup>(٣)</sup> . وأما عادة نكت الرمح في الأرض إعلاناً عن الرغبة في المفاوضة<sup>(٤)</sup> ، فإنما هي عادة تبدو في جوهرها عربية ؛

---

(١) سريع القطع .

(٢) صلب .

(٣) ديمای ، ص ٤٠ .

(٤) رينو دي مونتبوان ، ص ٢٣٦ ، انظر جوتييه ، ص ٧١٤ .

فالعربي يغرس رحمة أمام خيمته ويغرسه أمام خيمة مضيفه ؛ وذلك تقليد قديم درج عليه القوم في الصحراء . ودون أن نفصل الحديث عن سنان الرمح - الذى اتخذ هنا وهناك أشكالا بعينها ، فهو تارة مثلت عريض ناتئ المحور ، وأخرى على هيئة ورق الشجر<sup>(١)</sup> ، وثالثة بمثابة حربة قصيرة ( تشبه لسان الكلب كما يقول العرب ) - ينبغي ألا ننسى في هذا المقام ذكر اللواء . وهذا جوتيه يقول : « كان يثبت في أعلى الرمح راية لم تختف إلا في منتصف القرن الثاني عشر »<sup>(٢)</sup> ، في حين يميز ابن الأعرابي وغيره من اللغويين بين « اللواء » الذى كان يعلق في أعلى الرمح ، وبين « العلم » . . . فقد أصاب « لافيس » إذن عند ما حسب أن الحروب الصليبية قد أدخلت في أوروبا « الرمح المزين بالبندو »<sup>(٣)</sup> .

ولقد أجمع المؤرخون العرب على التنويه بما اعتاده القوم في كل حروبهم من رفع الألوية على رماحهم . وهكذا يفسر قول النبي : « جعل رزقي تحت ظل رمحي » بمعنى ظل لوائى<sup>(٤)</sup> .

وأول هذا الحديث بأنه تحية أداها النبي للرمح . وينبغي أن نرى فيه قبل كل شيء تشجيعاً وحثاً للناس على البحث عن جداتهم ، والرمح في أيديهم ، بين مغامر العدو .

(١) ديمای ، ص ٣٩ .

(٢) جوتيه ، ص ٧١٠ .

(٣) لافيس ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ .

(٤) صحيح البخارى : باب ما قيل في الرماح . وهكذا تأوله المؤلف (تحقيق) .

وكما جلا النبي لأتباعه ، في عبارات رائعة ، فضل الرمح والسيف ، فقد حثهم كذلك على استخدام القوس والسهم . لقد كان يرمى في حقيقة الأمر ، إلى إذكاء شغفهم بجميع الأسلحة ، غير أنه كان حريصاً على أن يوجه نفوسهم التقية إلى الاعتزاز بما يراه أضمن تلك الأسلحة لتحقيق النصر ، ولذا أشاد بالقوس .

ولقد كانت القوس في عصر الجاهلية بمثابة رمز للرجولة . فكان كل عربي يقتنى قوساً ولو لم يمتلك رمحاً أو سيفاً . كانت القوس في متناول أيدي جميع الأغنياء والفقراء على حد سواء ، إذ كانت تصنع من كل صنوف الخشب ، خشب الأرز أو شجر التين أو النع . ولقد كانت رفيق البدوي ووسيلة عيشه ، وألزم له من القلم للكاتب ، فالسهم السريع هو الذي يصيب الغزال النافر أو الطير الطائر . وهكذا كان القوم يدربون بنهم على استعمال القوس منذ يستطيعون حمله ، ولم يكن بين الألعاب التي ينهافت عليها الشباب شيء أكثر انتشاراً من الرماية . وكان لهم في مباريات الرماية قواعد صارمة ، ورهان ، وجوائز تكافئ البراعة والسداد . وبلغ من منزلة القوس أن العربي كان إذا أراد أن يلتزم التزاماً رسمياً ، سلم قوسه لدائنه . ولم يكن للقوس في الواقع أية قيمة مادية ، ولكنها كانت ترمز إلى العهد وتمثل الذمة ، وكأنها التوقيع الشرعي الصحيح الذي يسجله الإنسان في حضرة الموثق والشهود ، حتى كان العار كل العار - كعار الإسبرطي

العائد من المعركة بلا درع - أن يظهر المدين أمام القوم بعد انقضاء أجل الدين ، أعزل من القوس الضامن . ومن هان كذلك ، اعتبر امرأاً لا شرف له ولا عهد ، جباناً لا يستحق أن ينتسب إلى العرب .

ثم أراد محمد أن يبنى لأمته رياضة الرماية بالقوس ، وهي رياضة نبيلة قدر أثرها الحاسم في المعارك ، فأبقى على التنافس بالإبقاء على الرهان ؛ فإنه بالرغم من نهيهِ عن جميع ألعاب الرهان ، قد استثنى الرهان في سباق الخيل وفي الرماية ، ودعم هذا الاستثناء بأحاديث نبوية أصبحت من بعده سنة مرعية . وكان غرضه هو حفظ حياة أنصاره إلى أقصى حد ممكن ، وذلك بعدم تمكين ضربات العدو منهم ، وضمان النصر لهم في الوقت نفسه من حيث براعتهم في الرماية . ولقد أثمرت دروسه ، فكان من نتائجها أن الصليبيين قد سارعوا منذ عودتهم من الأرض المقدسة - بعد أن حنكهم الخبرة - إلى إدخال استعمال النبل في أوربا<sup>(١)</sup> .

ولنذكر في ختام الحديث عن القسي حديشين شريفيين ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« اركبوا وارموا . وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا » .

وقال : « كل هو المؤمن باطل إلا في ثلاث : تأديبه فرساً ورميه عن كبد قوسه ، وملاعبته امرأته ، فإنه حتى . إن الله ليدخل الجنة بالسهم

(١) لافيس ، ج ٢ ، ص ٢٤٦

الواحد : عامله المحتسب ، والقوى به في سبيل الله أى والرأى به في سبيل الله « (١) » .

كانت تلك هى أسلحة الحرب الهجومية : القوس ، والرمح ، والسيف .  
ويحسن أن نضيف إليها ، استكمالاً للقائمة ، آلة لقذف الأحجار .  
استعملها العرب منذ القرن السابع ولم تظهر في أوروبا إلا في القرون الوسطى (٢) .  
فالمؤرخون يقولون لنا إن النبي قد استخدم «المنجنيق» ضد أهل « الطائف » .  
ومهما يكن من صحة هذه الرواية ، فإننا نستخلص من عدة مواضع في  
كتاب « الأغاني » أن استخدام المنجنيق كان جد شائع في القرن التاسع .  
ويصور لنا أبو الفرج على الخصوص في حديثه عن حصار هرقلية —  
هارون الرشيد « وهو يأمر بأن تصلى المدينة أحجاراً ونيراناً بالمنجنقات » (٣) .  
ومعروف من ناحية أخرى أن العرب قد أدخلوا عن الإغريق نارهم  
التي تشتعل فوق الماء لضرب السفن ، ولكن هل هم الذين ابتكروا بارود  
المدفع ، أم ترى أخذوه عن الصينيين ؟ ربما كان البارود الذى استنبطه  
الراهب « شوارتز » اختراعاً ألمانياً كاختراع الغازات السامة . . . يا طالما  
أثيرت هذه الأسئلة دون أن يجد سائلوها الجواب اليقين ، ويا لطول ما سوف  
تثار كذلك . . .

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٢١ .

(٢) ديمای ، ص ٥٤ .

(٣) الأغاني ، ج ١ ، ص ٩٠ .

وأما في مضمار الأسلحة الدفاعية ، فليس هناك ما يستوجب أن نخصه بالذكر . فقد عرف العرب منذ أقدم العصور - بفضل جوارهم للفرس وعلاقتهم المتصلة بهم<sup>(١)</sup> - الدرع الصافية التي استخدمت في أوروبا إبان القرون الوسطى . واتخذوا الحجن من الخشب ومن الجلود وفي آخر الأمر من المعدن كما اتخذوا خوذة سموها « البيض » - جمع بيضة - لشكلها البيضاوي ، ثم اتخذوا زرداً دقيقة الصنع نسبوها إلى فرعون تارة وإلى داود وسليمان تارة أخرى .

ويقول جوتيه « لا بد أن الزرد الذي استخدمه مقاتلو القرون الوسطى الأوروبيون قد اشتق من ذلك الإهاب الذي كانت تحاك عليه حلقات معدنية ، ثم خطر لهم يوماً أن يدخلوا بعض هذه الحلقات في بعض أي أن يزدوها ، فانتهوا إلى كساء جديد أغناهم عن الإهاب المسدل تحته ، وهكذا ابتدعوا الزرد . ولعلنا قد سلطنا في ذلك طريقاً آخر ، فأخذنا الزرد عن العرب الذين عرفوه قبلنا ، ومن هنا كان ذكر الزرد العربية في ملحمة « رولان » ( البيت رقم ٩٩٤ ) وغيرها<sup>(٢)</sup> .

ونحن نرجح المذهب الأخير ، لأن استخدام الزرد بصورته الحقيقية - وقد غدا أهم سلاح دفاعي لدى جميع الفرسان - لم يعم إلا خلال

---

(١) يذكر شاتوبريان في الحديث الرابع من كتابه « دراسات تاريخية » أن الرومان قد أخذوا عن الفرس الدروع الصافية ، فعرفت بذلك قبل ظهور الفروسية .

(٢) جوتيه ، ص ٧١٧ .

النصف الأول من القرن الثاني عشر<sup>(١)</sup> ولأنه لا مجال للشك من ناحية أخرى في أن العرب عرفوا الزرد ، وأتقنوا صناعتها قبل بداية القرن السادس. وحسبنا أن نستدل على ذلك من نص « الأغاني » الذي يسرد الطرف التي عهد بها امرؤ القيس للسمول ، نحو سنة ٥٢٧ : « . . . . » وكان أئمن ما يقتنيه امرؤ القيس خمس دروع : الفضفاضة والصفاية والحسنة والحريق وأم الديول ، وكانت منذ وقت طويل ملكاً للأمراء من آل عقيل الذين كانوا يتناقلونها من أب إلى ولد .»<sup>(٢)</sup>

والآن - وقد استعرضنا أسلحة الهجوم والدفاع - لعلنا لا نخرج عما نحن بصدده إذا ما تساءلنا عن رأى العرب في الحرب . أجل ، لقد أروع هذا الشعب المقاتل بالحرب لذاتها .. لما يسرى في نفوسهم من نشوتها ، عند اصطكاك السيوف والرماح ، وعند تجلى آيات البطولة والشهامة ، وعند العودة منها بحصاد المجد والشرف ، ولكنهم ما كانوا لذلك كله بالغافلين عن فظائعها ووبالها ، فيها هو ذاك زهير يقول :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمو      وما هو عنها بالحديث المرجم  
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة      وتضرى إذا ضريرتموها فتمصرم

(١) جوتييه ص ١١٧ ، ديمای ص ١١٢ ، ويقول لافيس « حل الزرد محل الإهاب حوالى سنة ١٠٦٦ » .

(٢) رفات الأغاني ، ج ٢ ، ص ١٧ .

فتعركم عرك الرحا بثقالها وتلقح كشافاً ثم تتح فتتم  
فتنتج لكم غلمان أشام كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتضطم

وها هي ذى بعض التعريفات :

يقول معاوية : « إن الحرب أولها نجوى ، وأوسطها شكوى ، وآخرها

بلوى » .

وسأل عمر يوماً عمرو بن معدى كرب :

— يا أبا ثور ، صف لى الحرب .

فضحك ثم قال :

— لقد سألت عنها خبيراً بها . هي والله يا أمير المؤمنين مرة المذاق ،

إذا شمرت عن ساق ، من صبر فيها عرف ، ومن ضعف فيها تلف ،

ولقد قال فيها واصفها ( امرؤ القيس ) فأجاد :

الحرب أول ما تكون فتية تبدو بزيتها لكل جهول

حتى إذا حميت وشب ضرامها عادت عجوزاً غير ذات حليل

شمطاء جزت رأسها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيل<sup>(١)</sup>

ومع ذلك فإن امرؤ القيس لم يبلُ إلا حرب ما قبل الإسلام . وما كانت

تلك العجوز الشمطاء مروعة بشعة إذا نظرنا إلى عدد الضحايا ، فهذه

حرب البسوس التي امتدت أربعين عاماً على أقل تقدير والتي كانت من

(١) المسمى ، ج ٤ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

أطول حروب التاريخ وأشدها سفكاً للدماء حسب شهادة شعراء العصر ،  
لم ينشب فيها - من أولها إلى آخرها - سوى خمس معارك ! لقد اشترك  
فيها ثلاثة أجيال من الرجال ، فإذا كانت النتائج ؟ قرابة ثلاثين ساعة  
في ميدان القتال ، ونحو مائة قتيل ، وبضع مئات من أبيات الشعر<sup>(١)</sup> .

على أن تعظيم الخيل والأسلحة ، بالإضافة إلى روح التنافس الذي  
تميز به العرب القدماء ، قد أنشأ بينهم أخلاق الفروسية من ناحية وأذكى  
فيهم الشغف بالقتال الفردي من ناحية أخرى . ذلك أنه من العسير في  
معمعة الوغى أن توجه العناية إلى ملاحظة امتياز المقاتل ، إذ يستغرق  
العراك نشاط المرء ، ويشغله الاهتمام بحسن بلائه عن استعراض ما يحوزه  
رفاقه من ضروب الاستبسال ، بينما تتيح المبارزات الفرصة لذلك ، فيتجلى  
ما يفخر به الفارس من براعة وشجاعة ، ومن فضل يظهره جواده ، ومن  
تترف يلمع في سلاحه ، ومن إعجاب الشهود به وثنائهم عليه .

ولم يكن ذلك في واقع الأمر سبب قيام الفرسان بالمبارزات ، ففي  
أوروبا كان الفرسان إذا أعوزتهم الحرب ينظمون مباراة فيما بينهم . وكانت  
المباراة قبل كل شيء فرصة لهم سانحة - لا للإبداع أو التدريب أو تعليم  
الناشئة - بل للقتال . فقد كانوا يستسلمون في خلاء الريف لمعارك حقيقية  
مرتبة الصفوف ، تسفر عن قتلى ، وجرحى ، وأسرى تجب عليهم الفدية<sup>(٢)</sup> .

(١) رنات الأغاني ج ٢ ، ص ٧٤ .

(٢) ديمى ص ٥٤ ، جوتييه ص ٦٧٩ وما يليها .

ثم تطورت المباريات فأصبحت اجتماعية إنسانية ، تدور قرب قصر من القصور ، وتشهدها سيدات نسيبات ، وتسبقها الأناشيد والأشعار والمنافرات وتحل فيها محل الرماح والسيوف أسلحة ودية (١) .

وأما في بلاد العرب فلم توجد نظم تشبه هذه الحروب وتلك المباريات ، فما كانت بالعرب حاجة إلى « تنظيم حرب » وهم الذين يعيشون في حرب دائمة بين بعضهم وبعض . وهكذا لم تكن تحين لهم مناسبة لإظهار براعتهم وشجاعتهم في كل يوم فحسب ، بل في كل لحظة من لحظات اليوم . ومن ناحية أخرى كان أسلوبهم في القتال يتيح لهم متعة التبارز في ميدان القتال واحداً ضد واحد ، أو اثنين ضد اثنين ، أو واحداً ضد عشرة أحياناً ، على مرأى من الجيوش الشاهدين . وكانت المعارك العربية كالمباريات تسبقها المنافسة . فقد كان أحد المقاتلين ينفصل عن رفاقه في السلاح ويتقدم حتى يبلغ خطوط العدو ، فيستثير مقاتلاً بعينه يرى أنه جدير به ، أو يصيح متحدياً « هل من منازل كفاء لي ! » . وكان الاستنفار في العادة بيت أو أبيات من الرجز ، يهدد فيها قائلها بالموت السريع الرهيب ذلك الخصم الذي قد يدفعه الجنون إلى منازلته . وفي الحال ينبرى من معسكر العدو شجاع يرد على التحدى بأبيات من نفس البحر ونفس القافية ونفس الإفراط في التهديد ، ومن ثم يبدأ النزال . . . . . ولقد ظلت هذه العادة الممعة في القدم سائدة إبان حروب الإسلام ، ولم تزل متبعة

(١) سيوف بلا نصال ورماح بلا استة .

في « ساراجوس » خلال القرن الحادى عشر . فهذا هو الطرطوشى يحدثنا عن مقاتل احترف الاستنفار فيقول : « كان في « ساراجوس » فارس يدعى ابن فطوم ، لم يكن يضارعه في الشجاعة عربى ولا بربرى ، حتى ليروى أن الأسباني كان إذا راح يستقى حصانه فأبى الحصان أن يشرب قال له : اشرب ! أم تراك رأيت ابن فطوم في الماء ؟ »<sup>(١)</sup> . وإلى هذه المنافرات وتلك المبارزات يشير « ماران » — عند ما يصف المشاهد الطريفة التى جرت بين المسيحيين والمسلمين أثناء حصار « بطليمائس » سنة ١١٨٩ — بقوله :

« لما كان الفرنجة والأندلسيون قد اعتادوا أن برى بعضهم بعضاً — وكأنهم في ذلك أبطال « هومير » — فقد تقاربت صفوفهم دون أن يعتورهم خوف ، وتبادلوا الكلام ثم القدح ثم الثأر بالسلاح . وكان النزال — الذى يظن أن العرب قد ابتكرته — متبعاً في تلك الأيام<sup>(٢)</sup> . وكان المسيحيون والمسلمون يتبارون في هذا الفن من العراك تحت أسوار بطليمائس . وما كان البطلان يتشابهان بالأيدى إلا بعد أن يتخاطبا ، وكان المغلوب يؤمر أو يشتدى . بل لقد استدعوا الأطفال ليتبارزوا أحياناً . ولقد بلغ من

(١) دوزى : « أبحاث في تاريخ اسبانيا وأدبها » ج ٢ ص ٦٥ وما يليها . وانظر « المستطرف » .

(٢) يردد كثير من كتاب التاريخ في القرون الوسطى أن جوزفوا دى بروي Geoffroy de Preully المتوفى عام ١٠٦٦ هو الذى ابتكر المبارزة . راجع جوتييه ص ٦٧٥ .

الألفة بين الشعين المتخاصمين ، أن الفرنجة كثيراً ما كانوا يرقصون على أنغام يعزفها العرب ، ثم ينشدون ليرقص العرب على الحان أناشيدهم .  
وتعينا مثل هذه التناصيل التي قد تبدو ضئيلة على التأريخ للأخلاق<sup>(١)</sup> .  
ويالها من أخلاق بدیعة !

ولقد أسلفنا القول بأن العرب لم يزاووا المباريات على الطريقة الأوربية ،  
بمعنى أنهم لم يخوضوا في داخل القبيلة وفي وقت السلم مبارزات بين بعضهم  
وبعض يتبادلون فيها الموت والجراح . فما كانوا ينزلون إلا العدو في ميدان  
القتال ، بيد أنهم كانوا يلعبون ألعاباً حربية — لا خطر فيها — ليدرّبوا  
جيادهم ويتدرّبوا على استعمال الأسلحة ، كما كانوا يعرفون رياضة  
المصارعة والمبارزة . . . دون سفك الدماء . وتنبئنا هاتان النادرتان اللتان  
نقلهما عن كتاب « الأغاني » بما يغنيننا عن الإطناب في التعايق على  
ألعاب العرب ومقاتلاتهم الفردية . أما الأولى فتروى لنا التحاماً بين شاعر  
وغرير من أجل امرأة :

« في ذلك الزمن لم يكن الشاعر جميل قد باح بحبه لبشينة . وحدث  
أن « توبة » مر في طريقه إلى الشام بقبيلة بني عذرة فلفت نظر بشينة ،  
مما أثار غضب جميل فصاح به :

— من أنت ؟

— إني توبة بن الهامر .

---

( ١ ) ماران ج ٢ ص ١٨١ .

— إنى أدعوك إلى مبارزتي في المصارعة والرماية والسباق .  
 فقبل توبة وتمنطق بوشاح أحمر أخذه من يدي بثينة . وانبرى لخصمه .  
 وصارعه جميل فلم يلبث حتى غلبه ، ثم تناول كل منهما قوسه فقلبه  
 جميل كذلك ، ثم تسابعا فسبقه جميل . فقال توبة :  
 — إن محضر هذه المرأة يجعلك غلاباً ، فلتنزل إلى الوادى ونعد  
 الكرة . . .

وبعيداً عن عيني بثينة هُزم جميل في السباق والرماية والمصارعة .  
 وها هي ذى النادرة الثانية :

« سأل عمر بن الخطاب عمرو بن معد يكرب : من أشجع من رأيت ؟  
 فقال : والله يا أمير المؤمنين لأخبرنك عن أحيل الناس وعن أشجع الناس  
 وعن أجبن الناس . فقال عمر : هات .

قال : . . . فضيت حتى اشتمل على الليل . فوالله إننى لأسير  
 فى قمر باهر كالنور الظاهر ، إذا بفتى على فرس يقود ظعينة وهو يقول :

يا لدينا يا لدينا ليتنا يعدى علينا

ثم يبلى ما لدينا

ثم يخرج حنظلة من مخلاته ثم يرمى بها فى السماء فلا تبلغ الأرض حتى  
 ينظمها بمشقص من نبله . فصحت به : خذ حذرک ثكلتك أمك ، فإنى  
 قاتلك . فال عن فرسه ، فإذا هو بالأرض . فقلت : إن هذا الاستخفاف .

فدنوت منه وصحت به : ويلك ما أجهلك ! فما تخلخل ، ولا زال حتى شككت بالرمح في إبهامه ، فإذا هو كأنه قد مات منذ سنة . فضيبت وتركته ، فهذا أجبن الناس .

ثم مضيبت فأصبحت بين دكادك ، فنظرت إلى أبيات فعدلت إليها ، فإذا فيها جوار ثلاث كأنهن من نجوم الثريا ، فبكين حين رأيته ، فقلت : ما يبكيكن ؟ فقلن : لما ابتلينا به منك ، ومن ورائنا أخت لنا أجمل منا . فأشرفت من مرقد ، فإذا بشخص لم أر شيئاً قط أجمل من وجهه ، وإذا بغلام يحنف نعله ، عليه ذؤابة يسحبها ، فلما نظر إلى وثب على الفرس مبادراً ، ثم ركض فسبقني إلى البيوت . فوجدته قد ارتعن ، فسمعته يقول لمن :

مهلا نسياني إذا لا ترتعن إن منع اليوم نساء تمنعن  
أرخين أذيال المروط وارتن

قال : فلما دنوت منه قال : أتطرد لي أو أطرد لك ؟ فقلت : بل اطرد لي ، فركض وركضت في إثره حتى أمكنت السنان من لفتته ( واللفتة أسفل الكتف ) واتكأت عليه ، فإذا هو والله مع لئب فرسه ، ثم استوى في سرجه فقلت : أقلني . فقال : اطرد ! حتى إذا ظننت أن السنان بين ناصيته اعتمدت عايه ، فإذا هو والله قائم على الأرض والسنان زالج ،

فاستوى على فرسه ، فقلت : ألقى ، قال : اطرده ، فطرده ، حتى إذا  
 أمكنت السنان من منته اتكأت عليه وأنا أظن أنى قد فرغت منه ، قال  
 فى سرجه حتى نظرت إلى بدنه فى الأرض ومضى السنان زالماً ، ثم استوى  
 على فرسه وقال : أبعد ثلاث تريد ماذا لى ؟ ثكلتك أمك ! فوليت وأنا  
 مرعوب منه ، فلما غشيتى ، وحدت حس السنان ، فالتفت ، فإذا هو  
 يطردنى بالرمح بلا سنان ، فكف عنى واستترلى ، فنزلت ونزل والله وجز  
 ناصيتى وقال : انطلق ، فانى أنفك بك من القتل . فكان ذلك والله  
 يا أمير المؤمنين عندى أشد من الموت ، فذلك أشجع من رأيت . وسألت  
 عن الفتى فقيل ربيعة بن مكدم من بنى كنانة <sup>(١)</sup> .

ولقد وجدت بين أبطال العرب عهود وأحلاف حربية تشبه إلى حد  
 ما تلك الروابط التى وحدت بين دوجسكلان Du Guesclin وكليسون  
 Clisson ، وبين باسومبير Bassompierre وشومبرج Schomberg <sup>(٢)</sup>  
 ولا حاجة بنا إلى الإطالة فى موضوع يعرفه الجميع .

جملة القول إذن أن العرب فى كل العصور قد عظموا الفرس وعظموا  
 الأسلحة ، وبلغوا — بالتربية الصارمة والتدريب اليومى والاعتناء الذكى  
 المخلص — فى فن الحيل وفن صياغة الأسلحة واستعمالها شأواً من الإتقان  
 يجاور حد الكمال .

(١) الأغاني ج ١٤ ص ١٣١ .

(٢) لاكورن دى سانت بالاي ، ج ١ ، تعليقات ص ٢٧٢ وما يليها .